بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الإله والرب والدين والعبادة

هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه ، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن. فجماع مايدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا يشاركه فى ألوهيته ولا في ربوبيته أحد . فيجب على الانسان أن يرضى به إلهاً وأن يتخذه دون سواه رباً ،ويكفر بألوهية غيره ويجحد ربوبية من سواه ، وأن يعبده وحده ولا يعبد أحداً غيره ويخلص دينه لله تعالى ويرفض كل دين غير دينه سبحانه كما ورد في التنزيل:

(وَما أَرسَلْنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسولٍ إِلاّ نوحي إليهِ أَنهُ لا إله إلاّ أنا فاعبُدونِ.)

(الأنبياء : ٢٥)

(وَما أُمِروا إلاّ لِيعَبُدوا إلهاً واحِداً لا إِلهَ إلاّ هوَ سُبحانَهُ عَمّا يُشرِكون.) (التوبة : ٣١)

(إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكمْ أُمَّةً واحِدةً وأَنا رَبُّكمْ فاعبدونِ). (الأنبياء: ٩٢)

(قُلْ أَغيْرَ اللهِ أَبغي رَبّاً وَهوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ.)

(الأنعام : ١٦٤)

فَمَنْ كانَ يرجو لِقاءَ رَبِّهِ فَليَعْمَلْ عَملاً صالِحاً وَلا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبِّهِ أَحداً.) (الكهف ١١٠)

(وَلقَدْ بَعثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً أَنِ اعبدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطاغوتَ.) (النحل : ٣٦)

(أَفَغيْرَ دينِ اللهِ يَبْغونَ وَلهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ طَوعاً وكَرْهاً وَإِليْهِ يُرْجَعونَ.) آل عمران: ٨٣)

(قُلْ إِني أُمرتُ أَنْ أَعبُدَ اللهَ مُخلِصاً لهُ الدّينَ.)

(الزمر : ١١)

(إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.)

(آل عمران : ٥١)

هذه الآي المعدودة إنما سردناها مثالا وأنموذجاً ، وإلا فمن قرأ القرآن وتتبع آياته ، فانه يحس لأول وهلة أن كل ما نزل به القرآن الكريم من الهدي والارشاد لايدور إلا حول هذه المصطلحات الأربعة، وليس موضوع الكتاب وفكرته الاساسية إلا :

أن الله هو الرب والاله.

وأنه لا رب ولا إله إلا هو .

فاياه ينبغي ان يعبد الانسان .

وله وحده ينبغي أن يخلص الدين .

أهمية المصطلحات الأربعة

ومن الظاهر البيّن أنه لابد لمن أراد أن يدرس القرآن ويسبر غور معانيه ، أن يتفهم المعاني الصحيحة لكل من هذه الكلمات الأربع ويتلقى مفهومها الكامل الشامل ، فاذا كان الانسان لايعرف ما الإله ، وما معنى الرب ، وما العبادة ، وما تطلق عليه كلمة الدين فلا جرم، أن القرآن كله سيعود في نظره كلاماً مهملا لايفهم من معانيه شيء .فلا يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد، أو يتفطن إلى ماهية الشرك ،ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه أو يخلص دينه له . وكذلك إذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضاً متشابهاً في ذهن الرجل وكانت معرفته بمعانيها ناقصة فلاشك أنه يلتبس

عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والارشاد ، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمناً بالقرآن . فانه ان ينفك يلهج بكلمة لا إله إلا الله ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون الله . ولن يبرح يعلن أنه لارب إلا الله ثم يكون مطيعاً لارباب من دون الله في واقع الأمر . إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنه لايعبد إلا الله تعالى ولا يخضع إلا له ، ولكنه مع ذلك يكون عاكفاً على عبادة آلهة كثيرة من دون الله . وكذلك يصرح بكل شدة وقوة أنه في حظيرة دين الله وكنفه وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الاسلام هجم عليه وناصبه الحرب ، ولكنه يبقى مع ذلك متعلقاً بأذيال أديان متعددة ولاشك أنه لا يدعو أحداً غير الله تعالى ولا يسميه بالاله أو الرب بلسانه ، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعاني التي وضعت لها هاتان الكلمتان ، والمسكين لايشعر أصلا أنه قد أشرك بالله آلهة وأرباباً أخرى وإذا نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقترف للشرك في الدين ، لانقض عليك بخمش وجهك ، إلا أنه يكون عابداً لغير الله حقاً وداخلاً في غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة) و (الدين) وهو لايدري مع كل ذلك أن الاعمال التي يرتكبها هي في حقيقة الأمر عبادة لغير الله وأن الحالة التي قد سقط فيها هي في نفس الأمر دين ما أنزل الله به من سلطان.

السبب الحقيقي لهذا الفهم الخاطىء

يدلنا النظر في عصر الجاهلية وما تبعه من عصور الاسلام أنه لما نزل القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم مامعنى (الإله) وما المراد بـ (الرب) ، لأن كلمتي (الإله)

و (الرب) كانتا مستعملتين في كلامهم منذ ذي قبلُ ، وكانوا يحيطون علماً بجميع المعاني التي تطلقان عليها . ومن ثم إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ولا ربٌ سواه ولاشريك له في ألوهيته وربوبيته ، أدركوا ما دُعوا اليه تماماً وتبين لهم من غير مالبْسٍ ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به ؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى ، فالذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل مايبطله وينعي عليه كفره بألوهية غير الله وربوبيته ، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل مايوجب قبولُ تلك العقيدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه .

وكذلك كانت كلمتا (العبادة) و (الدين) شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ماالعبد ، وما الحال التى يعبر عنها بالعبودية ، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم (العبادة) وما مغزى (الدين) وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ ومن ثم لما قيل لهم «أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن . وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا : أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة ؟

ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرة في معانٍ ضيقة محدودة ، ومخصوصة ، بمدلولات غامضة مستبهمة . وذلك لسببين اثنين:

الاول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة ، والثاني أن الذين ولدوا في المجتمع الاسلامي ونشؤوا فيه ، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات (الإله) و (الرب) و (العبادة) و (الدين) ما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين بدلاً من معانيها اللغوية الأصلية . ودونك من ذلك أمثلة :

إن كلمة (الإله) جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان.

وكلمة (الرب) جعلوها مترادفة مع الذي يربي وينشيء وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم .

وكلمة (العبادة) حددوها في معاني التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدي الله ،

وكلمة (الدين) جعلوها نظيراً لكلمة النحلة (Religion) .

وكلمة (الطاغوت) فسروها بالصنم أو الشيطان .

فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن فاذا دعاهم القرآن ألا يتخذوا من دون الله إلهاً ، ظنوا أنهم وفوا مطالبة القرآن حقها لما تركوا الأصنام واعتزلوا الأوثان ؛ والحال أنهم لا يزالون متشبثين بكل مايسعه ويحيط به مفهوم (الاله) ماعدا الأوثان والأصنام ، وهم لايشعرون أنهم بعملهم

ذلك قد اتخذوا غير الله إلهاً. وإذا ناداهم القرآن أن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دونه رباً، قالوا ها نحن أولاء لانعتقد أحداً من دون الله مربياً لنا ومتعهداً لأمرنا، وبذلك قد كملت عقيدتنا في باب التوحيد، والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة (الرب) غير هذا المعنى - المربي - . وإذا خاطبهم القرآن أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، قالوا: لانعبد الأوثان، ونبغض الشيطان ونلعنه ولا نخشع إلا لله، فقد امتثلنا هذا الأمر القرآني ايضاً امتثالاً، والحال أنهم لايزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الاحجار، وقد خصوا سائر ضروب العبادة — اللهم إلا التأله — لغير الله، وقل مثل ذلك في (الدين)، فانه لايفهم الناس من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن ينتحل المرء مايسمونه (الديانة الاسلامية) وألا يبقى في ملة الهنادك أو اليهود أو النصارى. ومن ههنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الاسلامية أنه قد أخلص دينه لله، والحق أن أغلبيتهم ممن لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة (الدين).

نتائج هذا الفهم الخاطىء

فمن الحق الذي لامراء فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ماغشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل. وذلك من أكبر الاسباب التي قد تطرق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم واعمالهم على رغم قبولهم دين الاسلام وكونهم في عداد المسلمين. ومن أجل ذلك كله

يجدر بنا أن نفصل معاني تلك المصطلحات الأربعة ونشرحها شرحاً كاملاً ، ليتبين غرض القرآن الحقيقي وتعاليمه الاساسية .

ومع أني قد حاولت الإلمام بمفهوم تلك المصطلحات في مقالات لي عديدة تقدم لي كتابتها، غير أن ماقد كتبته حتى الآن لايكفي في حد ذاته لدرء الأخطاء التي قد تسربت إلى الأذهان في هذا الباب؛ ولا يكاد يقتنع به الناس ويطمئنون اليه لأنهم يحسبون كل ماآتي به من الشرح والتفصيل لمعاني تلك الكلمات من غير استشهاد بآي الكتاب العزيز ومن غير استناد إلى معاجم اللغة ـ يحسبونه رأياً لي ارتأيته ؛ والظاهر أن رأيي الشخصي لايمكن أن يقنع الذين لايرون رأيي ولا يوافقونني عليه على الاقل. فأردت في هذه الرسالة أن أبين المعانى الكاملة الشاملة لهذه المصطلحات الاربعة ، من دون أن آتي في ذلك بقول لايؤيده القرآن أو برأي لايستند إلى معاجم اللغة .

وسأتناول بالبحث أولاً كلمة (الاله) ثم (الرب) ثم (العبادة) ثم (الدين) إن شاء الله تعالى .

أبو الأعلى